ترجمةُ الإمامِ العَلَّامة

«جَمَال الدِّينِ بنُ هِشَام الأَنصَارِيّ»

من كتاب «عقود الجمان» للزَّرْكَشِي (ق/١٥٨-١٥٩)

نسَخَها وضَبطَها

أَحمد بن حَنُّونَ الصَّفِّي

الشيخ جَمال الدِّينِ بنُ هِشَام

عبد الله بنُ يُوسفَ بنِ هِشام، شيخُنا الإمامُ العالِم، شيخُ النُّحَاةِ والأُدبَاءِ واللُّغَويينَ والقُرَّاءِ في زَمانِه.

جمالُ الدِّين أبُو محمد بنُ هِشامِ الأَنصارِيّ، زعيمُ رُؤسَاء النَّحوِ وعلَمُ أعلامِه، وفارسُ مَيدانَيْ كَلِمِه وكَلامِه، العَارِف بقَوانينِ تَنكِيرِه وتَعرِيفِه، الجَامِعُ بين إعرَابِه وتَصرِيفِه.

كَشفَ القِناعَ عن مُخَبّآتٍ طَالَ ما استَحيَ عِندَها **أبو حَيَّان**، ومَلَك رِقَّ **ابنِ مَالك** وغَدا تَسهِيلُه بِه جُمَعَ لا نظيرَ لَه فِي الأَعيَان، وأَبرَز مُخَبَّآتِ دَقائِقِ عَروس فِكرٍ فظَهَر نورُ بَدرِها بِلا كُسوف، وأينعَت ثَمَرَاتُ فَضلِه فأصبَحَت دانيةَ القُطوف، وأقدَمَ نفسَه على مُشكِلاتٍ حُجِبَت عن **ابنِ الحَاجِب**، وطارَ قَلبُ **ابنِ عُصفورٍ** عندَ إيقَاعِ شَرَكِه الوَاجِب. هَذا مَع مَا كَانَ علَيه مِن الاتِّضَاع الكَامِلِ والإِحسَان الشَّامِل، ومَحَبَّةِ العِلم والاعتِكَافِ عَليه، وإِفرَاغِ أوقَاتِه فِي تَسلِيم جَوارِحِه إليه، وما رُزِق من الاحتِرَام، والتَّكريم والإعظَام.

فلَقد غَدَت بعدَه ربوعُ العِلم غيرَ آهلِة، وحَلَّت مَواقِعُ الجَهلِ وعَذُبَت مَناهِلُه. سقَى اللهُ عهدَه سَيلَ العِهاد، ورَوَّى ثَرَاه بكُلِّ مُلِثِّ الوَدْقِ ذِي بَرقٍ وإرعَاد.

أَلا يَا اسلَمِي يَا دَارَ مَيّ عَلى البِلَى ولا زَالَ مُنهَلًّا بجَرعَائِكِ القَطرُ

أخذَ العَرَبِيَّةَ عن الشَّيخِ الإمامِ العَالِمِ **شِهابِ الدِّينِ بنِ المرَحَّل الحَلَبي**، ورُزِق الذِّهنَ السَّليمَ فَاستَقَلَّ بِنَفسِه وترجَّحَ علَى غَيرِه مِن أَبناءِ جِنسِه وحمَل عنه عَامَّةُ طَلَبةِ شُيوخِه، وانتَفَع النَّاسُ به وبِكَلامِه.

ومن **مُصَنَّفاتِه**: «**مُغنِي اللَّبِيبِ عن كُتُبِ الأَعارِيب**»، الَّذِي فَاقَ به الأَوائِلَ، وحَازَ المَفَاخِر ونقُول: يالله كَم تَركَ الأَوَّلُ للآخِر! طالما أَغنَى المطَالِعَ عن مُطَالَعة كُتبِ الأَعارِيب، وقابلَ بدرَه نورُه، فقال: هذا **مِنَ الجَآذِر في زِيِّ الأَعارِيب**.

و«شرْحُ ألفِيَّة ابنِ مَالِك» سُمِّي **بـ«التَّوضِيح»**، **و«شَرحُ بانَت سُعَاد»**، **و«قَصيدَة البُردَة للأَبُوصِيرِي»**، ولخَّصَ «**شَواهِدَ شَرحِ الأَلفِيَّة**» وصَل فيهِ إلى بابِ «**إنَّ**» ولَو كمَّلَه لم يُؤتَ بمِثلِه. وعلَّقَ عن فِكرِه «**التَّذكِرَة**» من فنونٍ عَديدة في عدَّة مجلَّداتٍ وأكثَر وحَلَّ **الأَلغَازَ العَوِيصَة**، واطَّلَع على النُّقُول الغَرِيبَة. وبالجُملَة فكَانَ إنسانَ عَينِ الزَّمَان، وجمالَ ليلِ الأَوان.

قالَ لي رَضِي اللهُ عَنه: مَولِدي في ذِي القَعدَة، سَنةَ ثمانٍ وسَبعمائةٍ. وتوفِّيَ بالقاهرة في ذي القعدة يومَ الجُمعَة سادسَها، سنةَ إِحدَى وسِتِّينَ وسَبعمائة. ودُفنَ فِي مَقابِرِ الصُّوفِيَّة خَارجَ بابِ النَّصرِ.

وكان يومٌ مَشهُودٌ، وحصَل الأَسفُ الكَاملُ عَلَيه، وعُضَّتْ عَليه الأَنَامِل، وحَضَرتُه وشيَّعْتُ جنازَتَه، وارتَجَلتُ فِي تِلكَ الحَالِ:

لقَد ترحَت عَينِي لِمَوتِـــكمُ دَمًـا ... وزَادَ لفَرطِ الحزنِ مِن بعدِكُم كَربِي

ولَو أَنَّنِي قَد استَطَعتُ مِن الجَوَى ... دَفنْتكُم من لاعِجِ الوَجدِ فِي قَلبِي

سقَى اللهُ قَبرًا ضَمَّكُم هَاطِلُ الحَيَا ... ورَوَّحَ فِي الجَنَّــاتِ أرواحَــكُم رَبِّي

وأنشَدنِي لنفسِه الكَرِيمة رَحِمَه الله:

سلام كَنَشرِ الرَّوضِ سارَت به الصَّبَا ... يُصَافِحُه أَثلُ العُذَيبِ ورَندُهُ

على مُخجَــلِ البَــدرِ المنِـيرِ بوَجهِهِ ... غَزالٌ غَدا قَلبِي لَدَيه وعِندَهُ

ولَه:

قَـالَ وقَـــد أَرشَفَني رِيقَـهُ　　　　مِن بينِ هَاتِيكَ الثَّـايَا العِذَابْ

رِيقيَ أَشهَى أَم رَحيقُ الطِّلا؟　　　　فقُلتُ: لا أَعلَـــمُ، كُلٌّ شَرَابْ

وله في شَابٍ يسمَّى أَنسًا:

روَى لنَا النَّسِيـــــمُ عــن عَلِيـلِـهِ　　　　عَن ذَابِل الرَّوضِ ونَعسِ النَّرجِسِ

عَن طَرَفِ مَن أَهوَى فقُل لِلَائِمِي:　　　　هـَـذا حَدِيثٌ مُسنَـدٌ عَــن أَنسِ

وكتَب بعضُهم إليه مُستَدعِيَه:

أنتَ تُدعَى فَلا تُجِيبُ فَقُل لِي　　　　مَن بَقِي اليومَ للمَكَارِمِ أَهلَا

إِنْ تَكُنْ مُنعِمًا بنَقلِ رِكَـــابٍ　　　　فتَصَـــدَّقْ بــهِ عَلــيَّ وإِلَّا

فأجابَه:

اختِيَارِي أَلَّا أُفَارِقَ مَغنَـــــاكَ ولا أَبتَغِي سِوَاه محَلَّا

وَلقَد شِئتُ لَو يُسَاعِدُنِي الدَّهرُ عَليهِ ومَا تَشَاؤُونَ إِلَّا